في القاع
(قصة)

مجدولين أبو الرب*

نادى الصبي المارّة مبتسماً، داعياً إلى صندوقه: « تفضل، تفضل يا بيك». كان ينتقي عباراته التي حاول أن يجعلها مؤثرة، ومناسبة لكل مقام: «برجّعها جديدة» أو «طالعة من الفترينة الآن» أو « بدها وجهين تلميع». يثير صوته همّة بائع الكعك، الذي يقف قريباً من باب المقهى، فينادي: : «كعك ، كعك، سخن يا كعك». وبعد جولات من المناداة، كان الصبي يمنح نفسه استراحة، فيرجع إلى الخلف قليلاً، ليتكئ بظهره إلى الجدار.

على الجانب الآخر من الجدار، أخذ الرجل الجالس قرب الطاولة، يمزق الورقة التي لم ينته من كتابتها بعد. طلب من النادل كأس شاي بالنعناع، وانشغل بورقة أخرى بيضاء، كتب:

(فرح الصبي بالأقدام الكثيرة التي امتطت صهوة صندوقه. كان يجمع قروشه وهو مطمئن، قائلاً في سرّه: «لم يبقَ سوى ساعة أو ساعتين، وأنهي عمل اليوم، ثم أعود إلى المنزل وأعطي أمي النقود»...)

شاغل الصبي نفسه بترتيب علب البويا على الصندوق أمامه، ثم وضع الفراشي جانب الصندوق، متخيّلاً إياها سيارات يركنها في أوضاع مختلفة، مصدراً صوتاً يشبه صوت محرك سيارة. أخرج من جيبه فوطة، وراح يمسح مسند القدم المعدني. طوى الفوطة بعناية، وأعادها إلى جيبه، ثم راح يراقب الرصيف، ويتأمل الأحذية في أقدام المارة. رأى الرصيف حقلاً يموج بالأقدام، أحذية الرجال ذات ألوان داكنة، ما بين نظيف أو مغبرّ، مهترئ أو جديد. أحذية النساء مثل أحذية دمى كبيرة، ملوّنة لامعة، بعضها بكعب عالٍ، عالٍ جداً.

أقدام تدق الأرض بكعبها، وأخرى تنزل على رؤوس أصابعها. أحذية تعبر مسرعة، وأخرى تزحف بطيئة. لمح القدمين السحريّتين، تُقْبِلان من بعيد. فأخرج الفوطة من جيبة. كل يوم تمرّ من هنا، ثوبها جميل نظيف مكوي بعناية، تحمل حقيبة بلون الحذاء، حقيبتها تلمع، حذاؤها نظيف لامع، شعرها بني لامع، ودائماً أظافرها مطلية بعناية. كل يوم تقبل نحوه، تمر قربه ثم تتجه نحو البنك المجاور. كان يتخيّل هذه المرأة تستيقظ صباحاً، منهكة متعبة، شعرها منكوش متسخ، ملابسها رثّة. تفتح عينيها فتنبثق أمامها جنيّة، تطلع من أشعة الشمس، وبيدها عصا سحريّة. تلمس الجنية المرأة بعصاها، فتتحوّل هيأتها، لتصبح مثل الأميرات.

فضّ الصبي الفوطة المطويّة، وفكّر: «سأمرر الفوطة بحركة سريعة بحيث تلمس حقيبتها، ذيل ثوبها، حذاءها، يكفي أن تلمسها، ليحلّ سحرها في

* قاصة – الأردن

الفوطة. سيصير عندي فوطة سحرية تريحني من عناء كبير، سأمررها بخفة وسرعة على كل الأحذية التي قد تحطّ على صندوقي، فتتحول إلى أحذية جديدة لامعة».

مرّت ساعات، والرجل منكبّ على الورق. شعر بالجوع، فوضع القلم جانباً، ونهض. وقف بباب المقهى، ثم عبر الشارع. عاد بعد قليل إلى طاولته في المقهى، طلب فنجان قهوة. تناول ورقة، وشقّ طرفها، ثم طواه عدة طويات، فصار له طرفاً مدبباً، وضعه بين شفتيه. اتكأ برأسه إلى الجدار، وأخذ ينظف أسنانه مما علق بها من فُتات اللحم الرديء الذي تناوله قبل قليل. خلف الجدار كان الصبي قد فرغ من مسح حذاء أحد الزبائن. داعبت أنفه رائحة شواء، انبعثت من المطاعم القريبة، فبلع ريقه بصمت واشتهاء. غمس الصبي أصبعه السبابة في علبة الطلاء البُنّي، ثم مرّغ أصبعه على أرض الرصيف الإسمنتية، وراح يحركه بشكل دائريّ، فتشكلت دائرة بُنيّة. رسم صفاً من الدوائر البنية، الواحدة قرب الأخرى، ثم غمس أصبعه في علبة البويا السوداء ومرره بخط مستقيم مثل سيخ أسود اخترق الدوائر البنيّة كلها. نظر إلى رسمته على الرصيف، ثم نظر إلى الجدار خلفه، غمس أصبعه باللون البني، واستدار رافعاً يده نحو الجدار، لينقش عليه قطعاً من اللحم مشكوكة في سيخ شواء، فخطر بباله أن صاحب المقهى يمكن أن يغضب، ويمنعه من الجلوس في هذا المكان مرة أخرى.

سكنت يده الملطخة بألوان البويا وانتصبت أمام وجهه. وانثالت في ذاكرته سخرية الأولاد في المدرسة، وتهكم المعلم وتوبيخه: «ألا يوجد في بيتكم ماء وصابون؟! كيف تأتي إلى المدرسة ويداك مصبوغتان بالبويا؟ ألا يكفي أنك كسول ولا تقوم بواجباتك ؟

انتبه الصبي إلى صوت صاحب المقهى يحييه، لم يبتعد كثيراً عندما توقف محدّثاً أحد معارفه، وهو يشير نحوه: «المسكين يعيش وأخته الصغيرة عند جديه، منذ انفصل والداه، وصار لكل منهما حياة أخرى. الأم تزوجت، والأب تزوج، وتركاهما لجدّين قضمت السنون عافيتهما. عجوزان لا حول لهما ولا قوة».

بعد أن شرب الرجل قهوته، تمنى أن يسعفه القلم، وأن يتسع الورق لما يفيض في رأسه من رؤى وأفكار. أمسك القلم وكتب:

(...منذ وفاة الأب قبل عام، كان عليه، رغم صغر سنه، أن يعيل أسرته. كان الأب عامل بناء، لم يترك للعائلة راتباً شهرياً، ولم يكن للعائلة مصدر دخل يقيهم عثرات الزمن.

بعد شهرين من وفاة الأب، صار الصبي يلحّ على والدته طالباً العمل، ولم يكن هناك من مفرّ أمام الأم ، فإما أن يعمل، أو يجوع هو وإخوته الصغار.

مسحُ الأحذية كانت فكرة الجارة التي توفي زوجها العجوز تاركاً وراءه صندوق بويا وبضع فراشٍ، فاقترحت على الأم أن تستفيد من هذا الصندوق.

قبل أن ينهض الصبي، تحسس جيبه، وسُرّ لأنه جمع مبلغاً جيداً في ذلك اليوم. كم يتوق لرؤية وجه أمه عندما تلقاه، فتتبدد مسحة الحزن عن وجهها عندما تبتسم لقدومه، لحظات، ثم يحلّ الحزن في وجهها من جديد.

سوف يغتسل ويزيل أي أثر للبويا عن وجهه ويديه، سينظف أصابعه بعناية، ثم يأكل، وينهي واجباته المدرسية، وربما يسعفه الوقت فيلعب قليلاً مع إخوته، ثم ينام، ويذهب صباحاً إلى المدرسة...).

ظلَّ الرجل منكباً على الورق، وهو يعيد الحكاية على نفسه ويعدّل كلمة هنا وجملة هناك. نظر عبر الواجهة الزجاجية للمقهى، فلمح، وسط الظلام، رذاذاً خفيفاً يتناثر في الضوء المنبعث من أضواء السيارات. نهض، مسروراً بإنجازه، حرّك يديه وكتفيه يميناً ويساراً، ليفكّك التيبُّس الناجم عن انكفائه على الورق لبضع ساعات. الصبيّ، على الجانب الآخر للجدار، صحا من غفوته بعد أن شعر بقشعريرة ورذاذ ترشقه الغيوم على وجهه. نهض بتثاقل يلمّ علب البويا والفراشي. لمّ الرجل أوراقه، وارتدى معطفاً طويلاً، ثم وضع الأوراق تحت إبطه داخل المعطف وشدّ يده عليها، كي لا يحيل المطر كلماته إلى سيول زرقاء تسبح مثل الطلاسم على الورق، وضع قبّعة على رأسه واتجه نحو الباب.

حمل الصبي صندوق البويا، وعلّقه بحزام الجلد على كتفه، ودفن رأسه في ياقة معطفه، ومشى نازلاً في الشارع إلى قاع المدينة. سار مع السور الذي يحجز الوادي عن الإسفلت، وراح يدندن بأغنية تعينه في المسير، وتنسيه البرد، وتداري جوعه الذي اعتاد أن يحتال عليه برسمته المعهودة التي تركها على الرصيف، قطعاً بُنيّة تفوح برائحة البويا، تنقرها حبّات المطر، فتنمحي وتذوب، وتسيل نحو المجاري. سمع وقع خطوات تقترب خلفه، فاستدار، كان رجلاً يهرول يضع قبّعة، ويرتدي معطفاً طويلاً، ويضم

يديه لتطبق على شيء يخفيه تحت المعطف. مرّ الرجل وتجاوز الصبي مهرولاً نحو قاع المنحدر. تابع الصبي سيره وكانت المسافة بينه وبين الرجل تزداد، لكنه كان على مرمى بصره. في آخر الشارع المضاء لمح الرجل يقف بباب قريب من مدخل الزقاق. وقف قليلاً ثم اختفى. دقائق قليلة ووصل الصبي الباب حيث اختفى صاحب المعطف. سار بضع خطوات وانعطف في الزقاق. زقاق طويل يغرق في العتمة، وفي آخره باحة ترابية صغيرة حيث منزل الصبي. توقف الصبي قليلاً ودقق النظر متفقداً الأشباح الليلية السوداء؛ شبح منزل صغير، شبح منشر الغسيل المكون من قطعتين من خشب الطوبار مشدود إليهما حبل ما زالت عليه أشباح سوداء لقطع ملابس هنا وهناك، علب السمن الفارغة المزروعة بنباتات زينة رُصّت على مسافة من المدخل لتعطي حدوداً خارجية للمنزل. أشباح سوداء تقف باستقباله كل ليلة، ويحب أن يتأمل اللوحة على خلفية الليل والمطر، لوحة من البويا السوداء، لكن المياه النازلة لا تخللها. لاح له شبحٌ يجلس بباب الدار ساكناً مُلقياً رأسه على كتفه. وضع صندوق البويا جانباً، وهزه بكلتا يديه:

- أبي، أبي، اصحَ..

كانت تفوح منه رائحة قيء، فتح عينيه، وقال بصوت خَدِر:

- لم تقبل أن تفتح لي الباب، هل تعرف كيف يمكن لي أن أتفاهم معها؟ اسمع، أرغبُ أحيانا في أن أعلقها من قدميها وأتركها تتأرجح، وترى الدنيا بالمقلوب.. أتعرف لماذا؟ لأن دنياها أصلاً بالمقلوب، علّها بذلك تنعدل. فهي تشكو وتتذمر، وتفتعل النكد عندما أكون مسروراً، وتضحك عندما أكون مغموماً ...

فُتح الباب، وأطلّت امرأة، فقال الصبي:

- أمي ساعديني، ساعديني كي ندخله..

وهمّ بالنهوض ماسكاً يد أبيه، لكن المرأة سارعت في القول:

- كيف نقبله في الدار، وهو يزيد من أعبائي، يوم يعمل وعشرة لا، وعندما يعمل ينفق النقود على نفسه ولا يبقي لنا إلا القليل، أتظنني سعيدة لعملك وتركك الدراسة؟ أم سعيدة لخدمتي في المنازل؟

فتح الرجل عينيه وضحك، ثم توجه في الحديث إلى الصبي:

- ألم أقل لك؟ إنها ترى الدنيا بالمقلوب. أنا أريد أن أعمل، لكن صاحب العمل يوم يقبل بي ويوم يرفضني، ويتحجج بحجج فارغة...

- لماذا لم تُحضر حليباً لـ «نور»؟

قاطعهما الصبي:

- أرجوكما، أكملا حديثكما في الداخل، أنا تعبان.

وأمسك بيد والده الذي عمل جاهداً كي ينهض. كان الأب يتكئ بكل ثقله على الصبي، ويميل بجسده عليه ولا يبدو من الصبي إلا رأسه يخرج من تحت إبط الأب. سارا كجسد واحد بأربع أقدام.. كان كلام كثير يتطاير فوق رأس الصغير الذي لم يشأ أن يدرك منه شيئاً. عندما هوى والده على الأريكة الوحيدة قرب المدخل، انسلّ إلى الغرفة المجاورة. كان هناك صف من الفرشات الملقاة إلى جانب بعضها، تكومت عليها أجساد أخوته الغافية، أجساد كلها صغيرة، لكنه بحث عن الأصغر. تأمل الوجوه في العتمة، قبّل «نور» على خدّها، وارتمى على فرشة في عمق الرطوبة والعتمة قرب الجدار.